

مفاهيم وتعريف

التاريخ History : فرع من العلوم الإنسانية الذي يستهدف جمع المعلومات عن الماضي وتحقيقتها وتسجيلها وتفسيرها، فهو يسجل أحداث الماضي في تسلسلها وتعاقبها تارة وتزامنها تارة أخرى. لكنه لا يقف عند تسجيل هذه الأحداث، بل يفسر التطور الذي طرأ على حياة الأمم والمجتمعات والحضارات المختلفة.

العمارة Architecture: هي بيت العلوم والفنون على مر العصور. والعمارة هي السجل الموثق لتاريخ الانسان منذ نشأته على هذه الأرض وحتى يوم بعثه. هي ذلك الفراغ من الابداع الانساني الذي يؤطر الذاكرة ويعطيها شكلا يحفظ ما اختزنته الأجيال من صور ومفاهيم وتجارب وما أرادت التعبير عنه من مواقف ومشاعر ومعتقدات. فالعمارة هي فن تكوين الحجم والفراغات المخصصة لاحتضان الوظائف والنشاطات الانسانية والاجتماعية بتنوعها وهي انطلاقا من ذلك تعكس في سماتها وأشكالها، الإنجازات التقنية والحضارية والتطلعات الجمالية والروحية والقدرات المادية للمجتمع، في بيئة ما وفترة تاريخية محددة.

دراسة **تاريخ العمارة** ليست دراسة وصفية ولا محفوظات، تسرد تواريخ وأحداث تمر، بل هي استيعاب للروح المعمارية التي مرت وعاشت بعصر من العصور القديمة، ودراسة المشاكل المعمارية التي واجهت المعمار القديم، وأساليب المعالجة التي اتبعتها لتخطي هذه المشاكل وإمكانية الاستفادة من التجارب المعمارية القديمة بشكل يتوافق مع روح العصر ومتطلباته.

وكما أكدنا تعتبر العمارة الوجه الحقيقي والميزان الصادق لتطور وتقدم أي حضارة من الحضارات، وهي الدليل المادي والملموس لأي حضارة. كما أن الفن المعماري هو أول فن تبناه الإنسان وهو الفن القيادي لبقية الفنون، فضمنه الرسم والتشكيل والنحت والديكور وغيرها من الفنون. لهذا كله تدرس العمارة وفنونها وتاريخها في كل مدارس الفن والعمارة.

يبدأ التاريخ مع ولادة الحضارة كما أن ولادة الحضارة تطلق التاريخ، ويمكن تقسيم تاريخ العمارة حسب العصور الحضارات التي أبدعتها كما يلي:

1- عمارة عصور ما قبل التاريخ .

2- عمارة الحضارات القديمة:

- العمارة في بلاد الرافدين
- العمارة المصرية القديمة
- عمارة بلاد الشام
- العمارة الفارسية
- العمارة الصينية
- العمارة الهندية
- العمارة اليابانية
- حضارات الأستيك والمايا والأنكا في القارة الأمريكية

3- العمارة الكلاسيكية:

- العمارة المينوية
- عمارة المسينيين
- العمارة الإغريقية
- العمارة الرومانية

• العمارة المسيحية المبكرة

• العمارة البيزنطية

4- العمارة في القرون الوسطى:

• العمارة الإسلامية.

• عمارة الرومانسيك.

• العمارة القوطية.

5- عمارة عصر النهضة الأوربية:

• عمارة عصر النهضة المبكرة.

• عمارة عصر النهضة المتأخرة.

• عمارة الباروك.

6- عمارة القرن الثامن عشر الميلادي.

7- عمارة القرن التاسع عشر الميلادي.

8- عمارة الحداثة.

وسندرس في هذا الفصل العمارة العربية الإسلامية دراسة علمية واعية، تلقي لنا الأضواء على المفهوم العضوي للعمارة العربية الإسلامية، من خلال عصورها المتتالية، كما تساعد على فهم كيفية استخدام عناصر العمارة العربية والإسلامية بما يتناسب مع طبيعة العصر وتقدم الوسائل التقنية والمواد المعمارية فيه.

وعليه سيكون من الضروري، تتبع دراسة العمارة العربية والإسلامية منذ بدايتها في عهد الرسول العربي الكريم محمد (ص)، مروراً بالعمارة الأموية والعباسية والأندلسية والإيرانية والهندية. مع دراسة العمارة في العصر الأيوبي والفاطمي والعثماني في كل من بلاد الشام ومصر.

ولاستكمال مجمل جوانب التطور في المجال المعماري، لابد من دراسة العمارة في القرون الوسطى في أوروبا، في عصر الرومانسيك، القوطي، النهضة والباروك. مع رصد المؤثرات التي دخلت أو انتقلت من العمارة العربية والإسلامية إلى العمارة الأوروبية وبالعكس.

العمارة الإسلامية

حملت رسالة الإسلام معها مفاهيم روحانية عظيمة ورافق انتشارها ازدهار وتقدم للمنطقة العربية، وإلى المناطق الأخرى التي وصلت إليها رسالة الإسلام. وأدى انصهارها واندماجها مع الحضارات القائمة في هذه المناطق إلى خلق حضارة إسلامية مزدهرة ومتميزة في الكثير من مفرداتها الحضارية. فكانت العمارة صورة جميلة عن هذه الحضارة بكل جوانبها من مباني ومفردات معمارية متفردة، وظهرت مفاهيم جديدة في المسكن والسكن وفي التخطيط العمراني.

فالعمارة الإسلامية هي امتداد للحضارات السابقة، وإطلاق صفة الإسلامية لا يعني حصرها بالدين الإسلامي، بل هو تعبير عن العمارة في ظل الحكم الإسلامي. فهي في المنطقة العربية امتداد للحضارات السورية والرافدية والمصرية، وفي بلاد فارس هي امتداد لحضارة الفرس وهكذا. ومع انعكاس مفاهيم الدين الجديد والعقيدة الإسلامية على العمارة المحلية، ظهرت المباني الإسلامية والمباني الدينية لممارسة طقوس العبادة، وظهرت تغييرات في هذه العمارات المحلية كل حسب ثقافته وبيئته. فتطورت عمارة المساجد والجوامع التي جسدت أهم مظاهر العمارة الإسلامية، بدءاً من بناء المسجد الأول في المدينة المنورة إلى مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى، التي تعتبر من أقدم المباني في العالم الإسلامي.

استمر الطراز الإسلامي مدة طويلة من القرن السابع حتى التاسع عشر، وشمل بلاد واسعة امتدت من الصين حتى إسبانيا.

وقد درج بعض مؤرخي الفن على اعتبار الفن الإسلامي ناقلاً مقتبساً لا فناً أصيلاً، نظراً لأنه أخذ عن الحضارات التي سبقته، قبل مناقشة ذلك لابد من تعريف الأصالة في العمارة والفن.

الأصالة: هي الرد المتميز غير المقلد على الاحتياج.

وتمر الأصالة بثلاث مراحل:

- التعرف على ما هو موجود: وهذه عملية تفكير وتأمل وإعمال للذهن، من أجل الفهم الصحيح لخواص المادة المتوفرة.
- التصرف بما هو موجود: إن عملية التفكير والفهم، تقودنا إلى مرحلة تطويع المادة المتوفرة والاستفادة من خواصها إلى أقصى حد في الرد على الاحتياج.
- تطوير ما هو موجود: بعد الاستفادة من خواص المادة واستنفاد إمكانياتها، يأتي دور تطويرها لحصول على إمكانيات أوسع واستخدام أفضل.

مثال: في المرحلة الأولى: والتي هي التعرف على ما هو موجود، نلاحظ التراب والماء وخواصهما عند خلطهما معا وظهور مادة الطين، التي هي مادة قابلة للتطويع والتشكيل وعند جفافها تصبح صلبة، وفي المرحلة الثانية: نستفيد من نتائج المرحلة الأولى في الرد على الاحتياج لمادة تستعمل في البناء، فنصنع قوالب اللبن من هذا التراب المعجون بالماء والتبن ومن ثم نستخدمها عن طريق رصها معا كمادة لإنشاء البيوت، وهكذا تتحقق المرحلة الثانية وهي التصرف بما هو موجود بالاستفادة من خواص المواد إلى أقصى حد، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل يتعداه إلى تطوير هذه المادة الجديدة -اللبن- وهنا تأتي المرحلة الثالثة: وهي تطوير ما حصلنا عليه في الحصول على مادة مقاومة لتسرب الماء، وكان الحل بشي قطعة اللبن لتتحول إلى قطعة قاسية عازلة هي الآجر، والتطور لا يقف عند حد، فالآجر نفسه الذي استعمل لإنشاء الجدران فقط ولم يستعمل للتسقيف، الذي يحتاج لمواد تتحمل قوى شد، أصبح في مرحلة لاحقة قابلا للاستعمال في التسقيف، فقد أتى الحل الفذ برص الآجر بشكل دائري حتى يشكل قوسا، وعن طريق تكرار القوس تتكون القبوات والقبب.

إن استخدام مادة بناء تعمل على الضغط في بناء شكل قوسي، يزداد صلابة بازدياد قوى الضغط هو حل أصيل، وأما الحل المقلد غير المنطقي، فهو استخدام مادة كالبيتون المسلح القادرة على تحمل قوى الشد في صنع الأقواس، هو هدر لقوى هذه المادة لحجة الحفاظ على التراث. إن الفرق في الحالتين واضح، فالحالة الأولى: استخدمت القوس للتلاؤم مع طبيعة وخواص المادة، في حين كانت الثانية: مجرد تقليد. ولا شيء يمنع الاقتباس على شرط ألا يصبح تقليدا دون فهم، إن الاقتباس ومن ثم تطوير هذا الاقتباس بما يناسب الاحتياج هو عمل أصيل بكل تأكيد.

فالفن الإسلامي فن أصيل طور العناصر المقتبسة وحوورها، واستخدمها بأسلوب مختلف يتفق والاحتياجات الجديدة، كما وفق بين العناصر المستوحاة من مختلف الطرز، وكون عملا فنيا جديدا مميزا، يختلف عما سبقه بدليل قدرتنا على تمييزه أينما كان.

وإذا تذكرنا أن طراز العمارات السابقة، هو أصلا طراز استفاد من الحضارات الأخرى وطبعها بالطابع المحلي، لفهمنا أنه كان من الطبيعي أن تتم عملية الاقتباس -إذا سميناها اقتباسا- لأنها من صميم الفن المحلي والخبرة المحلية، ودليل على أصالة الفن المحلي وقدرته على امتصاص الثقافات الوافدة وصهرها في بوتقتها. وهذا يعني أن الفن الإسلامي الذي ساد هذه الساحة الشاسعة وطبعها بطابعه، طبع هو الآخر بالطابع المحلي في علاقة تبادلية تأثيرية، فالفن الإسلامي في سورية يختلف عن الفن الإسلامي في المغرب، وعن الفن الإسلامي في إيران، ولكنه في كل الحالات يصب في المدرسة الأم، فيتفق في الشكل العام ويختلف في التفاصيل.

د. عبير شذود